مساعي للمحتل الفرنسي إلى تمزيق هذه الوحدة الوطنية، فاستمال إليه الأسافل من القبط على حد تعبير الجبرتي، ثم يتساءل المؤلف بطريقة غير مباشرة: هل عصر الشربتلي الليمونة أو أن الليمونة هي التي عصرته؟ في إشارة منه ذكية إلى علاقة كليبر بالمقاومة هل سحقها فعلا أو أنها قضت عليه؟ والحقيقة أن ساري عسكر لقي حتفه على يد شاب حلبي هو سليمان الحلبي، لهذا فالليمونة هي التي سحقت الشربتلي، ويرى المؤلف أن هذه العملية الذي نفذها هذا الشاب لم تكن عملا فرديا، بل هي عملية أعدتها إحدى خلايا تنظيم المقاومة في الأزهر ويشير إلى تحضر الفرنسيس في التحقيق بوساطة التعذيب وإلى عدالة محاكماتهم المستندة إلى مبادئ الثورة الفرنسية: الحرية والمساواة والإخاء !! وهكذا تتقاطع مرة أخرى السبل - ودائما تتقاطع - بين المدرسة الوطنية والمدرسة الاستعمارية ،ففي حين يندهش الجبرتي من أولئك الجنود الذين قتلوا بلا مناقشة أو محاكمة أطفالا لا شبهة في براءتهم من مسئولية قتل كليبر ، ثم يهتمون بإجراء محاكمة لمتهم لا شبهة في أنه القاتل يحاول تلاميذ المدرسة الاستعمارية الاستدلال من ذلك على سمو العدالة الفرنسية، وقد انتهت هذه المحاكمة بقطع رقاب رفاق الحلبي ثم صلبهم على مرأى منه بعد حرق يده اليمنى وهو حي ثم نفذوا الخازوق في أحشائه على دقات موسيقى الجيش الفرنسي وتحت راية الحرية والمساواة والإخاء ((لا شك أنها كانت فرصة نادرة لكي يتعلم الأزهريون أنه من الممكن مسايرة الزمن مع الاحتفاظ بعوائد البلاد التي لا تمس إلا وتشهد هذه العوائد بعثا وتطويرا نادرين))ص ٣٨٧ وبهذا العمل الحضاري ختمت فرنسا صفحتها الحضارية في مصر ((منبهة كأعنف ما يكون التنبيه، كل الذين خدعتهم الشكليات، تنبههم إلى أن الاستعمار هو الاستعمار وأن الحكم الوحشي هو وسيلته الوحيدة في مواجهة تطلع الشعوب المشروع للتحرر))ص ٣٩٢

ثم يتطرق المؤلف إلى قضية تحرير المرأة فالجبرتي يرى في السفور الذي وقع من بعض نساء المسلمين في أثناء الحملة الفرنسية وممارستهن البغاء مع جيش الاحتلال -اختيارا أو إجبارا- خروجا عن الحياء ويراه فجورا أبيّنًا، بيد أن تلاميذ المدرسة الاستعمارية يرون في هذه البغاء والفجور والسفور بواكير تحرير المرأة، ولكل وجهة هو موليها.

ثم يختتم الأستاذ محمد جلال كشك رحمه الله تعالى كتابه الجليل [ودخلت الخيل الأزهر] بفصل عنوانه (ولله الحمد والمنة) يتحدث فيه عن زوال الفرنسيس عن المحروسة وذلك بعد مقتل كليبر بوقت يسير، وكانت نهايتهم بفضل الرفض الشامل الذي واجههم به المصريون، وهكذا هو ليل المحتل مآله دائما إلى انقشاع لتعشو شمس الحرية أعين أعداء الوطن والمنافقين الذين يسيرون في ذيل المحتل الأجنبي ((يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون)) المنافقون(٤)

حقيقة المدائح النبوية

سعيد محمد بن طاهر

> يا أهل طيبة والبقيع   يا ليتنا بالحق لي عندكم بقعه
> أصبح بها جار الشفيع   لأن لي حق القرابة فيه والشفعه
> وله علي حق الشفاعه
> سمعا وطاعة يا أهل طيبة   غيركم ما يستحق السمع والطاعة
>
> حسين أبو بكر المحضار

توالت المدائح النبوية منذ عهد الرسالة تمجيدا للإسلام ورسوله حتى وقتنا الراهن . ومع أن المدائح النبوية الإسلامية مثل غيرها من أنواع المديح شعورا فياضا وبلاغة رائعة وفصاحة بارعة وإبداعا فنيا وتصويرا خياليا إلا أنها تفتخر عليها بتأثر أصحابها بمشاهد الجمال المحمدي والكمال النبوي والفضل الإسلامي في رسالته وحضارته . إنها تمتاز بميزة ظاهرة واضحة لا يشاركها ولا يزاحمها فيها أي مديح على وجه الأرض إلا إذا كان تابعا لها ومندرجا تحت لوائها . ذلك هو الإخلاص المتجرد والحب الصادق والعاطفة الإيمانية القلبية التي لا يدفع صاحبها هوى ، ولا يسوقه غرض ، ولا يصدر عن طمع ، لأنها لوجه الله تعالى ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وإن المدائح التقليدية – كما يقول بعض الأدباء – تنتظر العطاء والرفد ، والخلعة والهبة وغير ذلك مما يبذله الممدوح لمادحه – مما تفيض به صحف التراث التي رصدت أخبار الملوك والأمراء والشعراء في مختلف العصور ، أما المدائح النبوية فقد اختلفت عن هذا وتغايرت معه . فقد كانت مدائح خالصة متجردة ، لا يدفعها الهوى ، ولا يسوقها الغرض ولا تصدر عن طمع . لأنها كانت لوجه الله خالصة وبحب الرسول لاهجة وبحب آل بيته من بعده حبا فيه وإكراما له بجانب دوافع الانتصار للقيم النبيلة التي يمثلونها ، خصوصا بعد ما لحق بالإمام علي كرم الله وجهه من خيانة وتآمر ، وخذلان من الأنصار ، ودهاء من الخصوم . وبعد المحنة التي حلت بآل البيت النبوي بعد مصرع الحسين واضطهاد الأمويين لهم إلى حد التنكيل بهم . إنها مدائح كما قلت مجردة من الغرض.

في ظل العدالة الصارمة التي فرضها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم توافقا مع مبادئ الإسلام وشريعة القرآن فما الذي يغري شاعرا بمدحه إن لم يكن الإيمان الخالص هو دافعه لا المال أو العطايا.

وما كان يمكن أن يكون الخوف هو الباعث للمديح عند من امتدحوه في حياته . فليست بينه صلى الله عليه وسلم وبين أحد خصومة ذاتية إلا فيما يتعلق بعدائه للإسلام ومناهضته له.

وأكبر شاهد على ما ذكرناه وتأييد لما قدمناه هو ذلكم الكم الهائل من القصائد التي تزيد على الألوف في مئات الدواوين الشعرية التي ظهرت بعد وفاة الرسول الأعظم والنبي الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فماذا يمكن أن يناله شاعر من مديح الرسول وقد توفاه الله إلا أن يكون التقرب إلى الله والتوسل إليه بمدح رسوله...

ومدح الرسول هو في ذاته تمجيد للإسلام .. وهو الدين الذي أنزله الله للإنسانية كلها ... وجعل مقياس ثوابه أو عقابه وفقا للإيمان به أو الكفر به ... ولم يترك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من صلبه خليفة يمكن أن يتقرب إليه الشاعر بمدحه ... وحتى الخلافة لم تؤل بعده لأحد من أهل بيته ... وفوق هذا فإن المدائح النبوية ومدائح آل البيت تزايدت بعد أن استتب الأمر للأمويين ، وأصبحت أيادي آل البيت صفرات من الفيء ، وكان المادح لهم يعرّض نفسه للأذى والانتقام بعد أن أصبح الحال كما يقول دعبل الخزاعي:

> بنات زياد في القصور مصونة   وآل رسول الله في الفلوات

ومن دعبل هذا يمكننا أن نقيم الدليل على صدق الإيمان وعلى الحب الذي أملى قصائد المديح على النفوس الشاعرة المؤمنة التي تمكن منها الإسلام الصادق ... بجانب الولاء الخالص للنبي وآل بيته ... فهذا دعبل الذي كان قاطع طريق ، متمردا ، يضمر الحقد والكراهية للناس قاطبة لدرجة أن يقول (ما كانت لأحد عندي منة إلا تمنيت موته) ولقد وصفه لنا صاحب الأغاني بأوصاف غير مشرفة ... ومع ذلك عندما تتمكن نفحة الإيمان الصادقة منه ينطلق ليمدح الرسول وآل البيت في مواجهة خصومهم الحاكمين .. عتاة القهر والبطش ... وكان آل البيت وقتها مصدر بلاء ... لا يد عطاء ... ومن قصائده التائية المشهورة الرائعة التي يقول فيها:

> مدارس آيات خلت من تلاوة
> ومنزل وحي مقفر العرصات
> لآل رسول الله بالخيف من منى
> وبالركن والتعريف والجمرات
> ديار علي والحسين وجعفر
> وحمزة والسجاد ذي الثفنات
> ديار عفاها كل جون مبادر
> ولم تعف للأيام والسنوات
> قفا نسأل الدار التي خف أهلها
> متى عهدها بالصوم والصلوات
> وأين الألى شطت بهم غربة النوى
> أفانين في الآفاق مفترقات
> هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا
> وهم خير قادات وخير حماة

ويستطرد إلى أن يقول:

> أرى فيئهم في غيرهم متقسما
> وأيديهم من فيئهم صفرات
> فآل رسول الله نحف جسومهم
> وآل زياد حفل القصرات
> بنات زياد في القصور مصونة
> وآل رسول الله في الفلوات

ليس غير معنى الإيمان المصفّى النقي ما يدفعه ليقول ذلك عن آل البيت في مواجهة خصوم لأهل البيت يتمنون لو أتيح لهم أن ينفذوا إلى سرائر الناس ودخائلهم لينتزعوا منها ود آل البيت من جهة وليعاقبوهم على هذا الحب من جهة أخرى ... فماذا إذن يدفع الناس لمديح المضطهدين غير إيمان خالص...

ودعبل يبتهل إلى ربه قائلا:

> فيا رب زدني من يقيني بصيرة
> وزد حبهم يا رب في حسناتي

وها هو ذا الفرزدق يغضب عليه هشام بن عبد الملك ويسجنه انتقاما لقصائده في آل البيت وتعريضه بخصومهم ويبعث إليه أحد رجال آل البيت ببعض المال عونا له ولكنه يعيده إليه في إباء ويقول ((مدحت لله لا لعطاء)) وها هو ذا الكميت يقول نفس القول لجعفر بن محمد ، وقد حاول أن يقدم إليه بعض المال والكساء ((والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه ... ولكن أحببتكم للآخرة))